المؤتمر التأسيسي لجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بفرنسا

باريس 20 أيار (مايو) 2002

د. محمد المستيري

عقدت جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بفرنسا مؤتمرها التأسيسي وقد حضر المؤتمر ما يقارب مائتي مشارك من الأساتذة الجامعيين الذين ينتسبون إلى عديد من الجامعات ومراكز البحث الفرنسية، إضافة إلى الباحثين وطلبة الدراسات العليا وبعض الشخصيات المؤثرة في الساحة الإسلامية ورؤساء الجمعيات الإسلامية الكبرى في فرنسا.

كانت الجلسة الأولى تحمل عنوان "المقاربات الإسلامية للبحث: المناهج والموضوعات والأولويات". وقد قدم الدكتور محمد المستيري المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ومدير مكتبه بفرنسا ورقة بالفرنسية بعنوان: "الخطاب الإسلامي: من الهوية الإيديولوجية إلى الهوية النقدية"، تطرق فيها إلى قيمة مقاربة الهوية في عالم يزداد تعدداً وتعقيداً، ومن ثم الحاجة إلى تعدد الهويات الجماعية باعتبارها الصانعة الوحيدة لقيمة التعدد اليوم، رغم أنها الأكثر خطورة في تفجير صراعات التطهير العرقي والطائفي. إن وحدة الهوية إنما تستطيع أن تتحول إلى خطر على تعدد الهويات حين لا تكون مؤسسة على الإيمان بالتعدد، وغير مولدة بل وصاهرة له. لقد سادت المرجعية الأيديولوجية الأحادية للهوية لتفرض على البشرية نمطية شيوعية أو لبرالية أو قومية متطرفة وهامشاً من التعددية داخل هذه النمطية. ولم يسلم الخطاب الإسلامي المعاصر من تأثير نمطية المرجعية الأيديولوجية، بل وتحول في معظمه إلى خطاب أيديولوجي يبشر بالمجتمع الإسلامي الواحد. ودعا الدكتور المستيري إلى تصحيح هذا الفهم الأيديولوجي للتعددية داخل الفكر الإسلامي نحو إحياء المرجعية الشمولية لهوية الإسلام ومعتنقيه والتي تقوم على الكونية والعالمية والإنسانية. فهي هوية أخلاقية، تستمد مسئوليتها من التكليف الإلهي، الذي يلزمها بالمحاسبة الشاملة لجميع مكامن النفس، فهي هوية نقدية في أصولها الأخلاقية والفلسفية الشاملة.

إن الانتماء إلى الهوية الشمولية النقدية هو منطق معرفي جديد في تصور قضايا الإنسان المعاصر. فليس الغرب وحده المعني بأزمة القيمة في الحضارة الحديثة إنما من مسؤولية الفكر الإسلامي من منطلق النظرة الشمولية أن يجيب عن مثل هذه التحديات. فحين يتخلى الخطاب الإسلامي عن الحدين البغيضين: تحريم الحداثة أو تحليلها، بإدراك جديد لذاته باعتباره نمطاً مشروعاً من أنماط الفكر الإنساني وليس نمطاً فرقياً أو مذهبياً ضيقاً لا علاقة له بالفكر الإنساني، حينها يمكن أن يشرع في إنتاج مناهج جديدة للمعرفة ومضامين جديدة لها.

وقدم الدكتور لؤي صافي مدير إدارة النشر في المعهد العالمي للفكر الإسلامي ورئيس جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بأمريكا ورقة بعنوان "في الخطاب الحداثي والتكامل المعرفي".

لقد ظهرت الحداثة في أوروبا في عصر الأنوار كمشروع حضاري، حملت معها مبادئ وقيم جديدة وكانت تسعى إلى تحرير الإنسان من تسلط الكنيسة. وانشغل روادها في وضع أسس فكرية والقيام بممارسات فعلية في شكل إصلاحات دينية في بريطانيا وألمانيا وتغييرات ثقافية مست العمق الفكري للإنسان الغربي وأثرت بصورة كبيرة في طريقة تفكيره وزلزلت قناعاته الثقافية والدينية.

انزلقت الحداثة في أوروبا انزلاقاً خطيراً حين أهملت الجانب الديني وظلت مجردة من كل أسس روحية وضوابط دينية. واختزلت تجارب الإنسان وصيرورة التاريخ الإنساني، في البحث عن إشباع الرغبات المادية. وأفرزت الحداثة عدة مشكلات، توقف الدكتور لؤي صافي عند ما سماه بتشرذم وعي الإنسان وفصل القيم والأخلاق عن حياة الناس فجعلتها دون ضوابط أخلاقية وفرضت العائد أو المنفعة معياراً لقياس النجاح. والاقتصاد العالمي يجسد بوضوح هذه الفكرة إذ أدى إلى اختلال التوازن بين الشمال والجنوب على الرغم من الثروات الطبيعية الطائلة التي تملكها دول العالم الثالث.

وتطرق إلى خطاب ما بعد الحداثة الذي حمل لواءه الفيلسوفان الفرنسيان ميشال فوكو وجاك دريدا. فقد قاما بتفكيك وفحص نقدي للحداثة وتقديم بعض بدائل لها. بمعنى تجاوزها دون تدميرها بالتمييز بين إيجابياتها وسلبياتها وإعادة الوحدة لدوائر الوعي

الإنساني ودوائر الحياة الاجتماعية. ونلحظ اليوم تغيير صورة أوروبا مقارنة بما كانت عليه منذ 50 سنة إذ تدخل بشكل واضح عنصر الإنسانية وقبول التنوع إلى مصوغاتها الفلسفية وسلوكيات الغربيين. والإسلام يمكن له أن يستفيد من هذه التوجهات النقدية للحداثة بتقديم أطروحة تعين على تطوير الأطر المعرفية وحل أزمة الحداثة بعيداً عن الانغلاق والعودة إلى القوميات الضيقة كما يدعو إلى ذلك بعض المفكرين الغربيين والجماعات والأحزاب المتطرفة في أوروبا وأمريكا.

ركز الدكتور سوري كابا أستاذ الدراسات العربية بجامعة السوربون في مداخلته على العلاقة بين اللغة والبحث العلمي وتساءل "ماذا يمكن أن تقدمه اللغة العربية للمقاربة الإسلامية؟" شرح بتفصيل هذه العلاقة ووصفها بالعلاقة القوية، فاللغة تخدم العلم وتزوده بالمفاهيم والمصطلحات. ودعا إلى تجديد اللغة العربية وصياغة مصطلحات إسلامية مواكبة للتطور العلمي للمشاركة في إثراء الثقافات الأخرى والتجاوب معها بصورة فعالة. واختتم مداخلته بالأسئلة التالية: كيف يمكن أن تقوم هذه اللغة بدور في إدماج اهتمامات العلوم الاجتماعية ضمن اهتمامات الفكر الإسلامي؟ كيف يمكن أن نواجه فكريا المرضية الاصطلاحية في الفكر الغربي من مثل: التسامح، الإنسانية، العلمانية، الإسلاموية..الخ؟ إلى متى ونحن نستمر في الاقتصاد في الفكر العميق مقابل التطور الشكلي الذي نحدثه من حين إلى آخر في لغتنا، في مفردات وأساليب خطابنا؟

وقدم الدكتور طارق رمضان أستاذ الفلسفة بجامعة فريبورغ بسويسرا ورقة حول "أولويات الخطاب الإسلامي"، ركز فيها على المفهوم الإسلامي الشامل للإنسان. وتحدث عن تفاعل الثقافة الإسلامية مع العولمة التي فرضت نفسها خاصة في مجالات الاقتصاد والإعلام. والرد الإسلامي يكون بالمشاركة بتفعيل قيم الإسلام ذات البعد الإنساني والسعي من أجل تعريفها والعمل بها. وأكد أن مشكلة الفكر الإسلامي ليست في المنهج وإنما في التصور، وأن المنهج متضمن في مجال أصول الفقه. واعتبر أن هناك قضايا أربع يجب التركيز عليها في بناء التصور الإسلامي: اعتبار الواقع ثابتاً في شمولية الخطاب، اعتبار العقلانية الإسلامية عقلانية إنسانية، تصور الإنسان على اعتباره مسلماً بفطرته، دراسة التراث ومراجعته في ضوء أصول الإسلام. ودعا في نهاية كلمته إلى تركيز الاهتمام في بناء التصور الإسلامي على مداخل الدراسات اللغوية والفلسفية والاجتماعية.

استأنف المؤتمر أشغاله بعد الظهر، وكانت الجلسة الأولى مخصصة لـ "تجارب جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين" في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وألمانيا. قدم الدكتور لؤي صافي مداخلة تحدث فيها عن تجربة جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بأمريكا. بعد لمحة تاريخية تعود إلى سنة 1972، تاريخ تأسيس الجمعية في أمريكا، بين الدكتور لؤي أهم الإنجازات التي حققتها الجمعية في الجانب الأكاديمي سيما من خلال مؤتمراتها السنوية ومطبوعاتها وحضورها في وسائل الإعلام الأمريكية وتعاونها مع الجمعيات الإسلامية لتقديم صورة مشرقة عن الإسلام والمسلمين خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر الماضي وما أفرزته من آثار سلبية على واقع المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وتناول الدكتور أنس الشيخ رئيس جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا في عرضه العلمي المتميز من خلال الشرائح والمطبوعات تجربة جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا التي تأسست في عام 1999، تعرض فيها لأهم الأعمال التي قامت بها الجمعية خلال السنوات الماضية وركز على التقارب مع العديد من الجمعيات والمنظمات الإسلامية. وسمح هذا التعاون بتحقيق الأهداف والبرامج المسطرة. وتحدث الدكتور أنس عن الآفاق المستقبلية لجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا بتفاؤل كبير. وأشار إلى التعاون مع هيئة مناهضة الإسلاموفوبيا والعنصرية في بريطانيا (FAIR) التي تعكس حيوية العقول الإسلامية والدور الذي يمكن أن تضطلع به في التصدي لمحاولات تشويه صورة الإسلام في الإعلام، وهو دور لا يقل وزناً عن دورها الأكاديمي. وذكر د. أنس أن أحد أهم إنجازات الجمعية هو تأسيس "مجموعة التعليم الإسلامي" بالتعاون مع مؤسسات أخرى. وتضم المجموعة أبرز خبراء التعليم المسلمين في بريطانيا. وقد انتهت المجموعة من إعداد ورقة استشارية سيتم نشرها قريباً ثم تطويرها لتكون وثيقة مفصلة تقدم إلى وزراة التعليم البريطانية حول كافة القضايا التي تخص التعليم الإسلامي والمدارس الإسلامية والمناهج ووضع الطلبة المسلمين في المدارس غير الإسلامية.

وتحدث الدكتور إسماعيل يافوسكان عن تجربة جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في ألمانيا والتي تعود إلى سنة 1997، فأشار إلى أهم نشاطات أعضائها في المجال الفكري من خلال عقد المؤتمرات وإصدار وثيقة متابعة للنشاطات الأكاديمية للجمعية، وأكد على أن

علاقات التعاون والتبادل مع النخبة والجامعات الألمانية هي أولوية العمل للجمعية في ألمانيا. ودعا إلى ضرورة التنسيق العميق بين جمعيات علماء الاجتماعيات في المناطق الأربع من العالم أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا من أجل فعالية أكبر في المستقبل.

أُتبعت هذه الجلسة بمائدة مستديرة حول "الدراسات عن الإسلام بفرنسا". قدم المداخلة الأولى فيها الدكتور علاء طاهر مدير قسم الشرق الأوسط بمركز البحث في فلسفة الاستراتيجية بجامعة السوربون. إن الدراسات الإستراتيجية في نظره كعلم في الجامعات الفرنسية حديث العهد يعود إلى السبعينيات، وعلى الرغم من ذلك تمثل الدراسات المخصصة للعالم الإسلامي الجزء الأكبر من اهتمامات الباحثين الفرنسيين. وتحققت كثير من تنبؤاتهم بالتطورات الاجتماعية والتقلبات السياسية والتحولات الثقافية التي طرأت فيما بعد على المجتمعات الإسلامية.

وركز الدكتور حسني فساسي أستاذ الدراسات السياسية بجامعة باريس على أهمية اللغة العربية في فهم الإسلام وتأسف كثيراً لتراجع استعمالها بين النخبة الإسلامية حتى داخل الجامعات الإسلامية العريقة التي درس فيها وزارها فيما بعد. واعتبر أن أي استشراف لنهضة إسلامية لا يتم إلا من خلال عودة ريادة اللغة العربية في دراساتنا عن الإسلام.

ومقارنة مع واقع الدراسات الإسلامية بفرنسا، عقب الدكتور مصطفى الحلوجي الأستاذ بجامعة الأزهر على المداخلات فتحدث عن الدراسات الإسلامية في الجامعات المصرية العريقة ومدى تعاونها مع الجامعات الفرنسية، ووصف هذا التعاون بالمثمر حيث توج بإصدار أعمال مشتركة، واعتبر أن أحد الأسباب الواقعية لتراجع الدراسات الإسلامية في الأزهر هي المشكلة المادية والتي تعيقه كذلك عن الإشعاع. وعقب الدكتور عبد المجيد النجار، الأستاذ السابق بجامعة الزيتونة مركزاً على المحطات الكبرى في تاريخ التعليم الزيتوني وعلى الدور الإصلاحي الكبير الذي قام به الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. وأشار إلى العد التنازلي الذي سار في اتجاهه هذا الدور منذ إعادة التعليم والبحث إلى الزيتونة حتى يومنا هذا، وبيّن أنّ أكبر أسباب التراجع غلبة التيار الحداثي على التيار الأصيل وتأثير ذلك سلبياً على القيمة الدينية والحضارية الإسلامية للجامعة.

تمثلت الفقرة الأخيرة للمؤتمر في حوار مفتوح بين الحاضرين جاء مباشرة بعد الورقة التي قدمها الدكتور محمد المستيري عن ثوابت هوية جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بفرنسا، حيث جرى التأكيد على الصفة الجامعة للمنتدى ولمركز البحث لهذه الجمعية، وعلى المبادئ المنهجية في عملها التي تتلخص في تعدد المقاربات والرؤية الشمولية والفهم الواقعي والاتجاه المقارن والمحاور والمقصد الإصلاحي. وأكد على ضرورة إيجاد ميثاق أخلاقي داخلي يحفظ الوجهة الوسطية الإسلامية في عمل الجمعية والملتزمين بها. وعبر عن أمله في أن تساهم الجمعية في توحيد جهود الباحثين المسلمين لتفعيل دورهم في المجتمع الفرنسي وتحقيق وجودهم في الوسط الأكاديمي وداخل الجامعة الفرنسية.

أخذت المناقشات مساراً إجماعياً متناغماً يعكس الحاجة الماسة لدى الباحثين المسلمين إلى مؤسسة علمية جامعة مستقلة من أجل توطيد الصلة بينهم والإسهام في النهوض بمستقبل الوجود الإسلامي في الغرب وفي إرهاصات النهوض الحضاري الإسلامي المنشود، واختتم المؤتمر بالإعلان عن فتح باب الانضمام إلى جمعية علماء الاجتماعيات بفرنسا.